http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1828) السنة السابعة - الثلاثاء (22) حزيران 2010

نشر موقع الحوار المتمدن قصيدة (أمين لا تغضب) لشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري ، تقديم الكاتب عبد الله الداخل.. وهي القصيدة التي نشرت منها أبيات في الجزء السابع من يوان الجواهري حسب الناقد والباحث د. محمد حسين الاعرجي في كتابه (الجواهري دراسات ووثائق الصادر عن دار المدى) وكانت القصيدة قد اذيعت كما يشير الاعرجي من اذاعة (صوت الشعب العراقي بصوت الشاعر اكثر من مرة) مشيراً إلى ان القصيدة وقد نقلت عن شريط تسجيل وقد لحقها في مواضع غير قليلة ما يصطلح عليه المحققون بتصحف السماع، وتحريفه .. وقد حاول الاعرجي في كتابه الانف الذكر ان يصحح هذه التصحيفات والتحريفات.

المدى تعيد بالاتفاق مع الكاتب عبد الله الداخل نشر التقديم والقصيدة ، تلبية لرغبات الكثير من القراء الذين اطلعوا على القصيدة في موقع الحوار المتمدن.

المدى الثقافي

-أمينُ لا تغضبْ- قصيدة محمد مهدي الجواهري بعد انقلاب شباط ١٩٦٣

عبدالله الداخل

abidakhil@yahoo.com

مقدمة:

إن ما جعلني أكتب عن هذه القصيدة، وأورد نصّها، هو اعتقادي بعدم توفرها في دواوين الشاعر أو على الانترنت، عدا عن بضعة أبيات هنا وهناك (لا أدري إن كانت موجودة في مكان آخر) ولغرض توفيرها بأفضل شكل ممكن للقراء والباحثين، بسبب أهميتها التاريخية الكبيرة.

محتويات المقال:

أ- عن ظروف القصيدة، ملاحظات عامة عن خلفية الانقلاب.
ب- المكانة التأريخية للقصيدة.
ت- شيء عن بُعد نظر الشاعر.
ث- مراحل القصيدة.
ج- مفردات.
ح- ملاحظة.
خ- النص الأصلي القصيدة.

أ- عن ظروف القصيدة

قيل أن أمين الأعور، الذي كان صحافيا لبنانيا يساريا، قد كتب مقالا غاضبا إثرَ الانقلاب العسكري في ٨ شباط ١٩٦٣، في العراق، يتساءل فيه كيف سُمح للوضع في العراق أن يصل الى ما وصل اليه.

لم يكن معظم العراقيين مهتماً بما قاله ذلك الصحافي اللبناني قدر اهتمامهم بالمعارك اليومية: المعارك الحقيقية، معارك الحياة والموت؛ ومن المعروف أن الانقلاب، الذي عُدَّ، على العموم، مفاجئاً، رغم أنه لم يكن كذلك للبعض، أوصل حزب البعث القومي اليميني المتطرف الى السلطة بإسناد ما دُعي بالجبهة القومية، وهي خليط يضم أيضا كل المتضررين بسبب الانجازات والتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أجرتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي قادتها شريحة من "منظمة الضباط الأحرار" بقيادة ضابط برتبة زعيم ركن اسمه عبدالكريم قاسم والتي أنهت حكم النظام الملكي التابع لبريطانيا، وحققت استقلالا فعليا بإخراج بغداد من حلف بغداد (سُمي "حلف السنتو" أو المعاهدة المركزية فيما بعد)، وترك العراق منطقة الاسترليني، وصدر قانون الاصلاح الزراعي الذي تم بموجبه الغاء النظام الاقطاعي حيث قرر توزيع الاراضي الزراعية على فقراء الفلاحين، وقانون الأحوال المدنية الهادف الى الاصلاح الاجتماعي وتحسين ظروف النساء، كما تم وضع اليد على معظم أرض العراق فيما يتعلق بالتنقيب عن الثروات (سمي الاجراء بقانون رقم ٨٠) كما قامت باجراء تغييرات جذرية أخرى ذات طابع ديمقراطي؛ وكان لابد أن تنال هذه الاجراءات تأييد القوى اليسارية، ومن ورائها ملايين المواطنين التواقين لتغيير وطنهم نحو عراق متقدم يسوده العدل الاجتماعي.

لكن الأخطاء القاتلة التي وقع فيها كلٌ من عبد الكريم قاسم في التلكؤ في السير الى نهاية الشوط، وقادة الحركة اليسارية في عدم المبادرة الى ازاحة قاسم واستلام السلطة ومواصلة المسير، منح زمام المبادرة لقوى اليمين التي كانت توجه سياسات قادته الجاسوسية الغربية.

جاءَ الانقلاب إذن انتقاما صريحا لما حصل بعد الرابع عشر من تموز من انهاء النظام الملكي التابع لبريطانيا، ومن اصلاحات جذرية، اقتصادية وسياسية، وانتقاما من قادة الثورة لأنها قامت، تحت ضغط اليسار، بتصفية أولئك المغامرين الذين كانوا هم المبادرين الى استعمال العنف ابان الأشهر الأولى للثورة وذلك في محاولتين اساسيتين (فشلت كلاهما) لتغيير مسار الثورة بحجة الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة التي كانت مؤلفة من مصر وسوريا، بقيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر: المحاولة الأولى من قبل الضابط الثاني في قيادة الثورة العقيد عبد السلام عارف ظهير الحركة القومية متحالفا مع الضابط النازي القديم (المتقاعد) رشيد عالي الكيلاني والقوى القومية اليمينية، وذلك في شتاء ١٩٥٨؛ وجاءت المحاولة الثانية في الموصل في آذار/مارس ٥٩ وسميت بحركة الشواف، رغم ان قائدَيْها الفعليَّيْن كانا رفعت الحاج سري، الرئيس السابق لمنظمة الضباط الاحرار وناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانية في كركوك، أوشك فيها القوميون على احتلال المدينة، وقاموا بالفعل بعد احتلال بعض المواقع بتنفيذ أحكام الاعدام الفاشية بحق بعض اليساريين مثل المحامي المعروف كامل قزانجي والضابط عبدالله الشاوي وآخرين، ولم يتسنَ لهم المجال لإعدام ستين آخرين من قادة الحركة اليسارية في الموصل والذين وقعوا في الأسر عدا إثنين منهم أفلتا من قبضتهم لانهما كانا في غاية الحذر، وقد تم إفشال المحاولة بفضل تظافر قوات حكومة الثورة مع القوى الوطنية في المدينة ومن خارجها، ولم يكن من السهل القضاء على تلك الحركة المسندة من قبل القوى القومية وعبد الناصر الذي كان قد أرسل للإنقلابيين معونات تحتوي على جهاز بث اذاعي.

بعد هاتين المبادرتين الفاشلتين تعلمت الرجعية العراقية دروساً في التنظيم الأفضل والتخطيط الأدق، فضمت الجبهة القومية إذن عناصر العهد الملكي السابق الخاضع مباشرة لتوجيهات بريطانيا (كان يُطلق عليه "عهد نوري السعيد"، وهو رجل المخابرات البريطانية، حامي النظام الملكي، من أصل تركي كان يترأس الوزارات العراقية كلما تطلب الأمر، وحين تعرض النظام الى الهزات)؛ كما ضمت أركان النظام الاقطاعي السابق من العرب مثل آل العريبي والخليفة في الجنوب وآل الياور في الشمال (الموصل، عائلة غازي الياور الذي عُين رئيسا للجمهورية بعد الاحتلال الأخير، وهو من أقارب أحمد عجيل الياور، الاقطاعي الذي لعب دوراً معروفاً في اسناد الردة الرجعية في العراق بعد ثورة ١٤ تموز ٥٨) الى جانب حزب البعث وأحزاب وقوى يمينية أخرى.

تشير بوضوح دراساتٌ تأريخية كثيرة وتصريحاتُ مسؤولين بعد انقلاب شباط (مثل على صالح السعدي، رئيس وزراء الانقلابيين، وحسين، ملك الأردن، ابن عم فيصل الثاني ملك العراق الذي قُتل في ١٤ تموز)، تشير الى أن الانقلاب كان قد خُطط له وتم الاشراف المباشر عليه من قبل المخابرات الأميركية والبريطانية.

ما تقدم مجردِ ملاحظات عن خلفية الانقلاب، ولا أدّعي أنه بحثٌ متكامل.

ب- المكانة التأريخية للقصيدة

وصلتُ مدينة العمارة (في الجنوب الشرقي من العراق) في أواسط نيسان/أبريل من ذلك العام الحالك، وحللتُ ضيفا لدى عائلة من الأقارب لبضعة أيام، وكان صوت المذياع عالياً في المدينة، خاصة في المحلة الفقيرة التي كنتُ فيها، إذ صادف أنني سرتُ في أزقتها ساعة بث القصيدة، والتي تم بثها عدة مرات، ليسمع الجميع صوت الشاعر الأكبر، مخاطباً بغداد، منددا بالانقلابيين وبعبد السلام عارف وجمال عبد الناصر وشيخ الأزهر محمود شلتوت (الذي "بارَكَ" الانقلاب) وإدارة كندي الأميركية، التي يسميها الشاعر "الكنديين"، وكنتُ معجبا بجرأة أهل العمارة في رفع صوت الراديوات، رأيتُ في ذلك خطرا عليهم، لكنهم لم يكونوا ليأبهوا، إذ لم أكن أدرك، أنا القادم من بغداد، حقيقة قلة عدد البعثيين في المدينة، إذ لم تكن الحال كما هي في العاصمة، ربما بسبب حقيقة أخرى، تأريخية مهمة، لم يُشرْ إليها بوضوح من قبل المؤرخين، وهي أنه قد تم قَبْيَل الانقلاب توجيه البعثيين "الحزبيين" من كل أنحاء العراق بالذهاب الى العاصمة مع الاهتمام بالشقاة، وخاصة منهم أولئك الذين يُطلق العراقيون عليهم اسم (السَّرسَرية). ولم أكن أعرف شيئاً عن مدينة العمارة، فلم يسبق لي أن عشت فيها، ولم تكن تخلو طبعاً من البعثيين والقائمين بأعمال التعذيب، ولا من أخبار يتم تناقلها بالتفصيل عن أحوال الموقوفين في المدينة وعن التعذيب وعن جثث مجهولة الهوية كانت تطفو على النهر بين الحين والحين.

كان صوتُ الجواهري هادراً وكانٍ يتهدّجُ، من الحزن حيناً، ومن الغضب أحياناً؛ فهو يوصي في القصيدة بالصبر، ولكن غضبه هو كان بحراً هائجاً، طافحاً؛ كان غضباً حقيقياً، قاسياً، لا يعرف الصبر، وسْطَ عواصف من غضب جمهور بدا أشدَّ غضباً وأمواج من التصفيق الطويل.

لقد تمكنت هذه القصيدة، وبصوت الجواهري من اذاعة صوت الشعب العراقي في أوربا الشرقية، أن ترفع معنويات جماهير العراقيين الى مستوى لم يتوقعه أحد وسط اشتداد وطأة الارهاب الفاشي الذي راح ضحيته الآلاف من خيرة العراقيين، حيث تعرض للإعتقال، وما انطوى عليه من تعذيب وقتول وتشويه جسدي ونفسي وارهاب ومحاكمات وحرمانات، ما يقرب من مليون مواطن حين كانت نفوس البلاد لا تتجاوز الستة ملايين ونصف.

إذن فبغض النظر عن تغيُّر هذا الظرف أوذاك، ورغم انحراف هذا الكاتب أو ذاك، تظل قصيدة "أمينُ لا تغضَبْ" للأستاذ محمد مهدي الجواهري، عَلَماً بارزاً في الكفاح الفكري، يَصْدق تشبيهُه برواية "الأم" لمكسيم كوركي التي صدرت بعد فشل ثورة ١٩٠٥ في روسيا، وربما كانت أعمق وأعم تأثيراً، وأبقى أيضا، في العراق، لدى المقارنة، مع الفوارق!

ت- بُعد نظر الشاعر:

١

في قاسم

يكفي أن نقول ان الشاعر الكبير اختلف مع عبد الكريم قاسم بسبب سياسته الرعناء في العفو عن المجرمين التي تمثلت بشعار قاسم الساذج "عفا الله عما سلف"، تلك السياسة التي أوصلت العراق الى نجاح انقلاب شباط.

ورغم أن علاقتهما كانت قديمة، منذ لقائهما في لندن في الاربعينيات، فانها انقطعت بعد ذلك بسبب ظروفهما، ثم التقيا ثانية بعد الثورة، حيث أصبحت صداقتهما أوطد خلال السنة الأولى بعد الثورة. كان قاسم زعيما سياسيا وكان الجواهري زعيما فكريا، حيث كان قاسم يُظهر احتراما كبيرا للجواهري. لكن سياسة قاسم الثنائية أوصلته فيما بعد الى تأليب الكتاب اليمينيين ضد الجواهري. ولم يسكت الشاعر عن السياسة الغبية تلك وأعاد على أسماعه ما كان قد قاله أيام بكر صدقي عام ١٩٣٦:

تصور الأمرَ معكوساً وخذ مثلا
عما يفعلون لو أنهمْ نُصروا
فضيق الحبلَ واشدُدْ من خناقهمُ
فربما كان في إرخائه ضررُ
وأيّ ضرر!

بيد ان هذا التنبيه لم ينفع بشئ، مما أدى الى احتدام الخلاف بين الصديقين.

٢

في الانقلابيين ومن آزَرَهم:

إن البيت:
واتصلت زوراً وقد أقسمت
بالعروة الوثقى على الانفصامْ

يشرح نفسه للمتتبع للأحداث التاريخية في العراق.

ث-

تقسم القصيدة الى أجزاء أو مراحل:

١

الأبيات التسعة الأولى عبارة عن مقدمة في مخاطبة الصحافي.

٢

الأبيات رقم ١٠-٢٢، مخاطبة بغداد، وتشكل مقدمة فذة لما يريد الشاعر قوله لاحقاً.

يا دارةَ المجد دار السلامْ
بغدادُ يا عقداً فريدَ النظامْ
يا أمَّ نهرَيْن استفاضا دماً
ونعمةً من عهدِ سامٍ وحامْ

٣

الأبيات ٢٣-٢٩ الشاعر يرجو المخاطب التريث والامهال، لأسباب.

أمينُ خلِّ الدمَ ينزف دماً
ودعْ ضراماً ينبثقْ عن ضرامْ

تجدر الاشارة هنا الى أن الشاعر خاطب جمهوره قائلا: "هذا ما لن يُقرأ"؛ معنى ذلك أن الشاعر كان قد حذف بيتاً أو مجموعة أبيات من القصيدة الأصلية قبل البيت رقم ٣٠، وأعتقد أنها مجموعة أبيات لم يقرأها، ومن الضروري أن يهتم بها المختصون وأن يحاولوا معرفة ما كانت تلك الأبيات.

٤

كشف حقيقة الإنقلابيين من البيت رقم ٣٠ الى ٤٦

أمينُ ألقى الغيُّ أستارَهُ وانزاحَ عن وجه النفاق اللئامْ

٥

بيتان للتمهيد للإنقضاض على محمود شلتوت

والاشتراكيةُ مدعومةً بالدين خصمان شديدا خصامْ
تُستنزَلُ الآيةُ معكوسةً في مطمعٍ أو شهوةٍ أو غُرامْ

٦

الأبيات ٤٨-٥٦ في محمود شلتوت.

٧

الأبيات ٥٧-٦١ في عبد السلام عارف.

٨

٦٢-٦٧، الختام.

ج- مفردات:

العيد: (هنا) عيد الفطر الذي حل بعد اسبوعين من الانقلاب.
الرُّغام: التراب
جيشٌ لأَم: غفير ومتراص.
الجِمام: الراحة
يُشأم: يُرنى إليه، يُتطلّع له.
الأُوام: حرارة العطش.
شذا: (هنا) أذى (وليس قوة الرائحة)
مُدى: جمع مُدية، وهي الشفرة أو نصل السكين
الحمام: الموت
أكام: تلال
الصفا وزمزم والمُقام: أسماء أماكن
الخنى: الفحشاء
دمام: (هنا) دِمم، جمع دِمّة، وهي القملة أو النملة أو ما شابه.

ح-

ملاحظة:

للأمانة التأريخية أنقل هذه القصيدة كما قرأت من قبل الشاعر دون تغيير، أي كما وردت في المسودة الأولى، وسيلاحظ القارئ أنها تحتوي على بعض الأمور الأصيلة authentic، كتكرار الرويّ في البيتين ١٥ و ١٦، وهو، كما أشرتُ سابقاً، أمر نادرٌ جدا في شعر الجواهري العظيم.

أمينُ لا تغضبْ

لشاعر العرب الأكبر
محمد مهدي الجواهري

أمينُ لا تغضبْ فيومُ الطِغامْ
آتٍ وأنفُ شامتٍ للرَّغامْ

أمينُ لا تغضبْ وإنْ هُتكَ الـ
ـسِّتْرُ وديستْ حُرُماتُ الذِّمام

وإنْ غدا العيد وأفراحُهُ
مآتماً في كل بيتٍ تُقامْ

عند البطون الطاهرات التي
ما إنْ بها عن كل خيرٍ عُقام

مدَّخرٌ للخائضينَ الوَغى
العام تلو العام، جيشٌ لَهَامْ

أمينُ لا تغضبْ فإنَّ الحمى
يمنعُهُ فتيانُهُ أنْ يُضامْ

خمسونَ عاماً وقتيلُ الكفاحِ
يشيبُ منه الطفلُ قبل الغلام

خضناهُ جبّارينَ في سوحه
أهونُ ما نلقاهُ موتٌ زُؤامْ

أمينُ كم من مَثَلٍ سائرٍ
يضربُهُ الشعبُ عليه السلامْ

يا دارةَ المجد ودارَ السلامْ
بغداد يا عِقْداً فريدَ النظامْ

يا أمَّ نهرَيْنِ استفاضا دماً
ونَعمةً من عهدِ سامٍ وحامْ

من عهدِ سنحاريب إذْ نينوى
يتوّج الحكمةَ منها النظامْ

وعهدِ حامُوراب إذْ بابلٌ
للكون في الأحكام منها احتكامْ

شعارُها الشمس وعنوانُها
سنابلُ القمح، وعدلٌ يُقامْ

وبابلٌ تضمُّ كل اللُّغى
وسحرُها يجذبُ كلَّ الأنامْ

وعهدِ هرون وفي حكمه
غمامةٌ تصوبُ كل الأنام

إذ شهرزادُ عن حقيق المُنى
تقصُّ عن آحلامها في المنامْ

بغدادُ والتأريخُ ذو أشطرٍ
وشرُّ شطريهِ عهودُ الجِمام

يغدو بها المُدْركُ ما لا يُرامْ
مُيَسَّرَ المأخذِ، سهلَ المَرامْ

يغفو على المجد وأحلامه
حتى إذا الغرورُ منّاهُ، نامْ

حتى إذا صحا رأى كوكباً
في كفّه أصبحَ برقاً يُشامْ

أمينُ خلِّ الدَّمَ ينزفْ دماً
ودعْ ضراماً ينبثقْ عن ضرامْ

وخلِّ سوحَ المجد ينهضْ بها
ركامُ موتٍ عن بقايا رُكامْ

ودعْ مُدى السفّاح مشحوذةً
ظمآنةً، يُبَلُ منها الأُوامْ

فما استطابتْ أمةٌ نشوةً
للنصر، إلاّ من كؤوس الحِمامْ

وأنفُساً واثقةً خلّها
تزحمُ جدارَ الموت بالارتطامْ

فالسيف يُعلى من شذا حدِّهِ
يومَ التنادي كثرةُ الإنثلامْ

أمينُ، خلِّ الرعبَ ينشرْ بها
جوّاً مُضِدّاً وسماءاً تَغامْ

فالصبحُ أبهى ما يُرى حسنُهُ
إذا استطالت غَمَراتُ الظلامْ

أمينُ ألقى الغيُّ أستارَهُ
وانزاحَ عن وجهِ النفاقِ اللئامْ

ما أقذرَ الفِسْق وإنْ ألّفَتْ
بَين الزواني روعةُ الإنسجامْ

إنَّ الشعوبَ اقتسمتْ عَنوةً
للكنديينَ اقتسامَ السهام

فسلَّمَتْ كُرهاً مقاليدَها
واستسلمتْ طوعاً الى العمِّ سامْ

واغتصبتْ أعناقَها غارقاً
في دمِ آلاف الضحايا الذمام

ليس لها من أمرها ثالثٌ
إما الموالاة وإما الحُسام

تنزو إلى الحُكم بها شهوةٌ
كشهوةِ الحبلى اعتراها الوِحامْ

وتنبري الطغمةُ عن طغمة
مثلَ العنوز انحدرتْ من أكامْ
قاستْ مقاييساً بأضدادها
وزوّرت كلَّ معاني الكلامْ

بالنور سَمَّتْ ظُلمةً والهدى
ظلالةً، ورجعةً بالأمام

وحقدَها الأعمى منارَ الهدى
وحُكمَها الأعرجَ لَبْنَ القَوام

وخطّت اللهَ على صدرها
وخوّضتْ بالدمِ حتى الحِزام

واغتلمَتْ بالدم لا ينتهي
منه ومنها طربٌ واغتلامْ

وخافت الفكرَ وأنوارَهُ
خيفةَ عدوى جَرَبٍ أو جُذامْ

تبتّت الوحدةَ إذ بعضُها
يذبح بعضا بسيوف الغرام

واتصلتْ زوراً وقد أقسمت
بالعروة الوثقى على الإنفصامْ

والإشتراكيةُ مدعومةً بالدين
خصمان، لديدا خصام
تُستنزَلُ الآيةُ معكوسةً
في مطمعٍ أو شهوةٍ أو عُرامْ

أمينُ هل جاءكَ ما حَلَّهُ
بالأزهر المظلوم ذاكَ الإمام

خليفةُ الله على عرشه
أضحى أجيراً لعروش الطُغام

عَمامةٌ لُفّتْ على سَوْأةٍ
لها بخزيٍ باضَ فيها دِمام

وهامةٌ يأنفُ من حَمْلها
ذو نخوةٍ أو أصيدٌ أو هُمام

بارك بغدادَ وسفّاحَها
بمأثمٍ يخجلُ منه الأثام

وهنّأ الفرعون في مصره
بينَ الغواني وكؤوس المُدام

أن العراقَ انتُهكتْ دورُهُ
عَشِيّةً، ثم استتبَّ النظام

أفتى بأنَّ حُرُمات حرامْ
ديسَتْ حلالٌ وسواها حرام

أفتى بأن الطفلَ بعد الرضاع
يُفطَمُ، والذبحُ له كالفِطام

من مُبْلِغُ الفاجرَ في ضَحْوَةٍ
على رؤوس المَلأ المُسْتضام

يا عبدَ حربٍ وعدوَّ السلام
يا خِزيَ من زكّى وصلى وصام

يا سُبّةَ الحجيج في عَمْرة
بين الصفا وزمزمٍ والمُقام

يا ابنَ الحَنَا إنَّ دماءَ الكرامْ
نارٌ تلَظّى في عروق اللئام

وللضحايا من جراحاتها
أيُّ عيونٍ خُزّرٍ لن تنام

أمينُ صبراً فالخطوبُ الجسام
تعْلَقُ حُباً بالهمومِ الضِّخام

صبراً فأمُّ الشرِّ في بطنها
فردٌ، وأمُّ الخير فيها تؤام

للحق في الأرض انتفاضاتُهُ
وللوعود في السماء التزام

صبراً فقد نصبر كي نلتقي
بالجزء من ثانيةٍ طولَ عام

نَفْحَ التحيات وصوبَ الغَمام
على الهُداةِ الشهداء الكرام

على نسور، هم وأجداثُهُم
عِطرُ التحيات ومِسْكُ الختام.

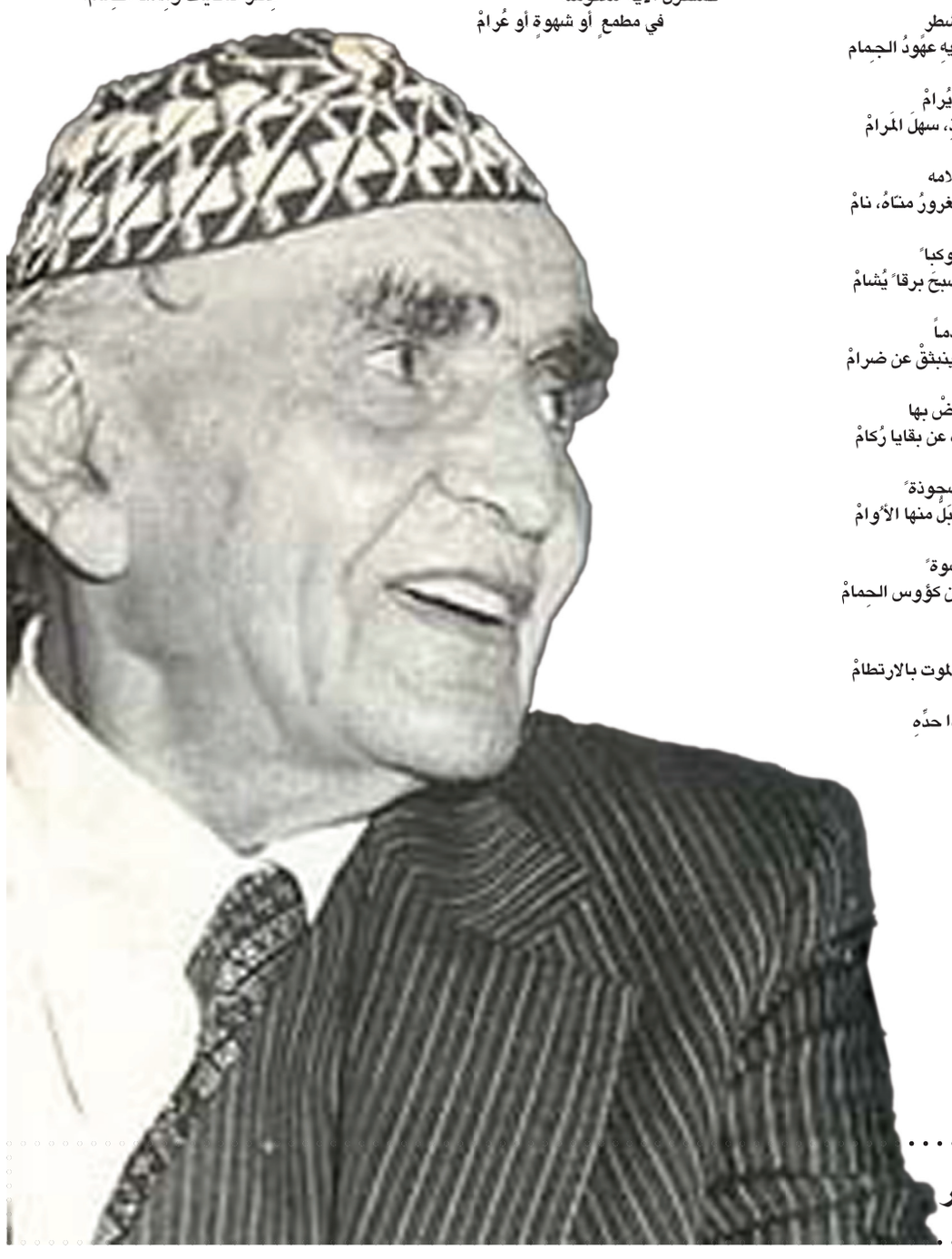

◆ كان صوتُ الجواهري هادراً وكان يتهدّجُ، من الحزن حيناً، ومن الغضب أحياناً؛ فهو يوصي في القصيدة بالصبر